الفصل السادس

هجرة النبي ﷺ وصاحبه الصديق رضي الله عنه

المبحث الأول

فشل خطة المشركين، والترتيب النبوي الرفيع للهجرة

أولاً: فشل خطة المشركين لاغتيال النبي ﷺ:

بعد أن مُنيت قريش بالفشل في منع الصحابة، رضي الله عنهم، من الهجرة إلى المدينة، على الرغم من أساليبهم الشنيعة والقبيحة، فقد أدركت قريش خطورة الموقف، وخافوا على مصالحهم الاقتصادية، وكيانهم الاجتماعي القائم بين قبائل العرب، لذلك اجتمعت قيادة قريش في دار الندوة، للتشاور في أمر القضاء على قائد الدعوة، وقد تحدث ابن عباس في تفسيره لقول الله تعالى:

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: الآية ٣٠] .

فقال: فتشاورت قريش بمكة، فقال بعضهم: إذا أصبح فأثبتوه بالوثائق، يريدون النبي ﷺ، وقال بعضهم: بل اقتلوه، وقال بعضهم: أن أخرجوه، فأطلع الله نبيَّه على ذلك، فبات عليٌّ على فراش النبي ﷺ تلك الليلة[1]، وخرج النبي ﷺ، فلما أصبحوا ثاروا إليه، فلما رؤوا عليًا رد الله مكرهم، فقالوا: أين صاحبك هذا؟ قال: لا أدري، فاقتفوا أثره، فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم الأمر، فصعدوا الجبل، فمروا بالغار فرأوا على بابه نسيج العنكبوت، فقالوا: لو دخل هاهنا لم يكن ينسج العنكبوت على باب، فمكث فيه ثلاثًا[2].

قال الأستاذ سيد قطب في تفسيره للآيات التي تتحدث عن مكر المشركين بالنبي ﷺ: «إنه التذكير بما كان في مكة، قبل تغير الحال، وتبدل الموقف، وإنه ليوحي بالثقة واليقين في المستقبل، كما ينبه إلى تدبير قدر الله وحكمته، فيما يقضي به ويأمر.. ولقد كان المسلمون الذي يخاطَبون بهذا القرآن أول مرة، يعرفون الحالين معرفة الذي عاش ورأى، ذاق. وكان

---

(١) انظر: في السيرة النبوية قراءة لجوانب الحذر والحماية (ص ١٣٥).

(٢) انظر: البداية والنهاية (٣/ ١٨١)، وابن حجر في الفتح، وحسن إسناده، فتح الباري (٧/ ٢٣٦).

يكفي أن يذكروا بهذا الماضي القريب، وماكان فيه من خوف وقلق، في مواجهة الحاضر الواقع، ومافيه من أمن وطمأنينة، وما كان من تدبير المشركين ومكرهم برسول الله ﷺ في مواجهة ما صار إليه من غلبة عليهم، لا مجرد النجاة منهم.

لقد كانوا يمكرون ليوثقوا رسول الله ﷺ، ويحبسوه حتى يموت، أو ليقتلوه ويتخلصوا منه، أو ليخرجوه من مكة منفيًا مطرودًا.. ولقد ائتمروا بهذا كله، ثم اختاروا قتله، على أن يتولى ذلك المنكر فتية من القبائل جميعًا، ليتفرق دمه في القبائل، ويعجز بنو هاشم عن قتال العرب كلها، فيرضوا بالدية وينتهي الأمر.

﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: الآية ٣٠].

إنها صورة ساخرة، وهي في الوقت ذاته صورة مفزعة.. فأين هؤلاء البشر الضعاف المهازيل من تلك القدرة القادرة.. قدرة الله الجبار، القاهر فوق عباده، الغالب على أمره، وهو بكل شيء محيط[(١)].

ثانيًا: الترتيب النبوي للهجرة:

عن عائشة أم المؤمنين قالت: كان لا يخطىء رسول الله ﷺ أن يأتي بيت أبي بكر أحد طرفي النهار، إما بكرة، وإما عشية، حتى إذا كان اليوم الذي أذن فيه لرسول الله ﷺ في الهجرة، والخروج من مكة من بين ظهري قومه، أتانا رسول الله بالهاجرة[(٢)] في ساعة كان لا يأتي فيها. قالت: فلما رآه أبو بكر، قال: ما جاء رسول الله ﷺ هذه الساعة إلا لأمر حدث.

قالت: فلما دخل تأخر له أبو بكر عن سريره، فجلس رسول الله ﷺ، وليس عند أبي بكر إلا أنا، وأختي أسماء بنت أبي بكر، فقال رسول الله ﷺ: «أخرج عني من عندك»؛ فقال: يا رسول الله، إنما هما ابنتاي، وما ذاك، فداك أبي وأمي! فقال: «إنه قد أذن لي في الخروج والهجرة». قالت: فقال أبو بكر: الصحبة يا رسول الله؟ قال: «الصحبة». قالت: فوالله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أحدًا يبكي من الفرح، حتى رأيت أبا بكر يبكي يومئذٍ، ثم قال: يا نبي الله إن هاتين راحلتان، قد كنت أعددتهما لهذا، فاستأجرا عبد الله بن أريقط رجلاً من بني الديل بن بكر، وكانت أمه امرأة من بني سهم بن عمرو، وكان مشركًا - يدلهما على الطريق - فدفعا إليه راحلتيهما فكانتا عنده يرعاها لميعادهما[(٣)].

قالت عائشة: «فجهزناهما أحث الجهاز، وصنعنا لهم سُفرة في جراب، فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها، فربطت به على فم الجراب، فبذلك سميت ذات النطاقين، ثم

(١) انظر: في ظلال القرآن (٣/ ١٥٠١).

(٢) الهاجرة: نصف النهار، عند زوال الشمس مع الظهر، أو إلى العصر.

(٣) انظر: السيرة النبوية لابن كثير (٢/ ٢٣٣-٢٣٤).

لحق رسول الله ﷺ، وأبو بكر، بغار في جبل ثور، فكَمَنا[١] فيه ثلاث ليال، يبيت عندهما عبد الله بن أبي بكر، وهو غلام، شاب، ثَقِف[٢]، لَقِن[٣]، فيُدلِج[٤] من عندهما بسَحَر، فيصبح مع قريش بمكة كبائت، فلا يسمع أمرًا يُكتادان[٥] به إلا وعاه حتى يأتيهما بخبر ذلك، حين يختلط الظلام، ويرعى عليهما عامر بن فُهَيرة مولى أبي بكر مِنْحَةً من غنم فيريحها عليهما حين تذهب ساعةٌ من العشاء، فيبيتان في رِسْل ـ وهو لبن مِنحَتهما ورَضِيفهما[٦] ـ حتى يِنعِق[٧] بها عامر بن فهيرة بِغَلس[٨] فعل ذلك في كل ليلة من تلك الليالي الثلاث، واستأجر رسول الله ﷺ أبو بكر رجلاً من بني الدِّيْل وهو من بني عبد بن عدي ـ هاديًا خِرِّيتًا ـ والخريت الماهر بالهداية ـ قد غَمَسُ حلفاً[٩] في آل العاص بن وائل السهمي، وهو على دين كفار قريش، فأمناه فدفعا إليها راحلتيهما، وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال براحلتيهما صبحَ ثلاث، وانطلق معهما عامر بن فهيرة، والدليل، فأخذ بهم طريق السواحل»[١٠].

ثالثًا: خروج الرسول ﷺ: ووصوله إلى الغار:

لم يعلم بخروج رسول الله ﷺ أحد حين خرج إلا علي بن أبي طالب، وأبو بكر الصديق، وآل أبي بكر.

أما علي، فإن رسول الله ﷺ أمره أن يتخلف، حتى يؤدي عن رسول الله ﷺ الودائع، التي كانت عنده للناس، كان رسول الله ﷺ، وليس بمكة أحد عنده شيء يخشى عليه إلا وضعه عنده، لما يعلم من صدقه وأمانته[١١]، وكان الميعاد بين الرسول ﷺ وأبي بكر رضي الله عنه، فخرجا من خوخة[١٢] لأبي بكر في ظهر بيته، وذلك للإمعان في الاستخفاء، حتى لا تتبعهما قريش، وتمنعهما من تلك الرحلة المباركة، وقد اتعدا مع الليل على أن يلقاهما عبد الله بن أريقط في غار ثور بعد ثلاث ليال[١٣].

---

(١) كمنا فيه: أي استترا واستخفيا ومنه الكمين في الحرب، النهاية (٤/ ٢٠١).

(٢) ثَقِف: ذو فطنة وذكاء، والمراد ثابت المعرفة بما يحتاج إليه، النهاية (١/ ٢١٦).

(٣) لَقِن: فَهِم حَسَن التلقي لما يسمعه، النهاية (٤/ ٢٦٦).

(٤) يدلج: أدلج إذا سار أول الليل، وادّلج بالتشديد إذا سار آخره.

(٥) يُكتادان: أي يطلب لهما فيه المكروه وهو من الكيد.

(٦) الرضيف: اللبن المرضوف، وهو الذي طرح فيه الحجارة المُحماة ليذْهب وَخَمُه.

(٧) ينعق: نعق بغنمه، أي صاح بها وزجرها، القاموس المحيط (٣/ ٢٩٥).

(٨) الغلس: ظلمة آخر الليل إذا اختلطت بضوء الصباح، النهاية (٣/ ٣٣٧).

(٩) غمس حلفًا: أي أخذ بنصيب من عقدهم وحلفهم يأمن به.

(١٠) البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي (رقم ٣٩٠٥).

(١١) السيرة النبوية لابن كثير (٢/ ٢٣٤).

(١٢) الهجرة في القرآن الكريم (ص ٣٣٤).

(١٣) خاتم النبيين لأبي زهرة (١/ ٦٥٩)، السيرة النبوية لابن كثير (٢/ ٢٣٤).

رابعًا: رِقَّةُ النبي ﷺ عند خروجه من مكة:

وقف الرسول ﷺ عند خروجه بالحَزْوَرَة في سوق مكة وقال: «والله إنكِ لخيرُ أرض الله وأحبُّ أرض الله إِلى الله، ولولا أني أُخرِجت منك ما خرجت»(١).

ثم انطلق رسول الله ﷺ، وصاحبه وقد حفظهما الله من بطش المشركين، وصرفهم عنهما.

روى الإِمام أحمد عن ابن عباس: أن المشركين اقتصوا أثر رسول الله ﷺ، فلما بلغوا الجبل ـ جبل ثور ـ خُلِطَ عليهم، فصَعِدوا في الجبل فمروا بالغار، فرأوا على بابه نسيج العنكبوت. فقالوا: لو دخل هاهنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه(٢) وهذه من جنود الله ـ ﷻ ـ التي يخذل بها الباطل وينصر بها الحق، لأن جنود الله ـ جلت قدرته ـ أعم من أن تكون مادية أو معنوية، وإِذا كانت مادية فإِن خطرها لا يتمثل في ضخامتها، فقد تفتك جرثومة لا تراها العين بجيش ذي لجَب، قال تعالى:

﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ [المدَّثِّر: الآية ٣١].

أي وما يعلم جنود ربك لفرط كثرتها إِلا هو، فجنود الله غير متناهية، لأن مقدوراته غير متناهية(٣)، كما أنه لا سبيل لأحد إِلى حصر الممكنات، والوقوف على حقائقها وصفاتها، ولو إِجمالاً فضلاً عن الاطلاع على تفاصيل أحوالها من كم وكيف ونسبة(٤).

خامسًا: عناية الله سبحانه وتعالى ورعايته لرسوله ﷺ:

بالرغم من كل الأسباب التي اتخذها رسول الله ﷺ، فإِنه لم يرتكن إِليها مطلقًا، وإِنما كان كامل الثقة في الله، عظيم الرجاء في نصره وتأييده، دائم الدعاء بالصيغة التي علمه الله إِياها(٥) قال تعالى:

﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا﴾ [الإِسرَاء: الآية ٨٠].

---

(١) الترمذي: كتاب المناقب، باب فضل مكة (٥/ ٧٢٢) وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ورقمه ٣٩٢٥).

(٢) مسند الإِمام أحمد (١/ ٣٤٨، ورقمه ٣٢٥١)، وقال محققوه: [إِسناده ضعيف. . .، وقالوا: وقال ابن كثير في «تاريخه» (٢/ ٢٣٩): «وهذا إِسناد حسن! وهو من أجود ما روي في قصة نسج العنكبوت على فم الغار، وذلك من حماية الله لرسوله ﷺ»] ونص كلام ابن كثير في البداية والنهاية: باب هجرة رسول الله ﷺ بنفسه الكريمة.

(٣) انظر: تفسير الرازي (٣٠/ ٢٠٨).

(٤) انظر: تفسير أبي السعود (٩/ ٦٠).

(٥) انظر: الهجرة النبوية المباركة (ص ٧٢).

وفي هذه الآية الكريمة «دعاء، يعلمه الله لنبيه ليدعوه به، ولتتعلم أمته كيف تدعو الله، وكيف تتجه إليه؟ دعاء بصدق المُدْخَل وصدق المُخْرَج، كناية عن صدق الرحلة كلها، بدئها وختامها، أولها وآخرها، ومابين الأول والآخر، وللصدق هنا قيمته، بمناسبة ما حاوله المشركون من فتنته عما أنزله الله عليه، ليفتري على الله غيره. وللصدق كذلك ظلاله: ظلال الثبات، والاطمئنان، والنظافة، والإخلاص: ﴿وَٱجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا﴾ قوة وَهَيْبَة استعلى بهما على سلطان الأرض، وقوة المشركين، وكلمة ﴿مِن لَّدُنكَ﴾ تصور القرب والاتصال بالله، والاستمداد من عونه مباشرة، واللجوء إلى حماه.

وصاحب الدعوة لا يمكن أن يستمد السلطان إلا من الله، ولا يمكن أن يُهاب إلا بسلطان الله، لا يمكن أن يستظل بحاكم أو ذي جاه، فينصره ويمنعه، مالم يكن اتجاهه قبل ذلك إلى الله. والدعوة قد تغزو قلوب ذوي السلطان والجاه، فيصبحون لها جندًا وخدمًا فيفلحون، ولكنها هي لا تفلح إن كانت من جند السلطان وخدمه، فهي من أمر الله، وهي أعلى من ذوي السلطان والجاه»(١).

وعندما أحاط المشركون بالغار، وأصبح منهم رأي العين طمأن الرسول ﷺ الصديق بمعية الله لهما؛ فعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: قلت للنبي ﷺ وأنا في الغار: لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا. فقال: «ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما؟»(٢).

وفي رواية: «اسكت يا أبا بكر، اثنان الله ثالثهما».

وسجل الحق ﷻ ذلك في قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: الآية ٤٠].

سادسًا: خيمة أم مَعْبَد في طريق الهجرة:

وبعد ثلاث ليال من دخول النبي ﷺ في الغار، خرج رسول الله ﷺ وصاحبه من الغار، وقد هدأ الطلب، ويئس المشركون من الوصول إلى رسول الله، وقد قلنا إن رسول الله ﷺ، وأبا بكر، قد استأجرا رجلاً من بني الدِّيْل يسمى عبد الله بن أريقط، وكان مشركًا، وقد أمناه فدفعا إليه راحلتيهما، وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال براحلتيهما، وقد جاءهما فعلاً في الموعد المحدد، وسلك بهما طريقًا غير معهودة، ليخفى أمرهما عمن يلحق بهم من كفار

(١) انظر: في ظلال القرآن (٤/٢٢٤٧).

(٢) البخاري: كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب المهاجرين (رقم ٣٦٥٣).

قريش[١]، وفي الطريق إلى المدينة مر النبي ﷺ بأم مَعْبَد[٢]، في قُدَيْد[٣]، حيث مساكن خزاعة، وهي أخت خُنَيس بن خالد الخزاعي، الذي روى قصتها، وهي قصة تناقلها الرواة وأصحاب السير، وقال عنها ابن كثير: «وقصتها مشهورة مروية من طرق يشد بعضها بعضًا»[٤]، فعن خالد بن خُنَيْس الخزاعي - رضي الله عنه - صاحب رسول الله ﷺ: «أن رسول الله ﷺ حين خرج من مكة، وخرج منها مهاجرًا إلى المدينة، هو وأبو بكر - رضي الله عنه - ومولى أبي بكر عامر بن فهيرة - رضي الله عنه - ودليلهما الليثي عبد الله بن أريقط مرُّوا على خيمتي أم معبد الخزاعية، وكانت بَرْزَة[٥] جَلْدَة[٦] تحتبي[٧] بفناء القبة، ثم تسقى وتطعم، فسألوها لحمًا وتمرًا؛ ليشتروه منها، فلم يصيبوا عندها شيئًا من ذلك، وكان القوم مُرْملين[٨] مُسْنِتِين[٩]، فنظر رسول الله ﷺ إلى شاة في كَسر الخيمة[١٠] فقال: «ماهذه الشاة يا أم معبد؟» قالت: خلَّفها الجَهْد عن الغنم، قال: «فهل بها من لبن؟» قالت: هي أجهد من ذلك. قال: «أتأذنين أن أحلبها؟» قالت: بلى بأبي أنت وأمي، نعم إن رأيت بها حلبًا فاحلبها.

فدعا بها رسول الله ﷺ فمسح بيده ضرعها، وسمى الله ﷻ، ودعا لها في شاتها، فتفاجَّت[١١] عليه، ودرَّت[١٢]، واجترَّت[١٣] ودعا بإناء يُرْبِض[١٤] الرهط، فحلب فيها ثَجًّا[١٥]، حتى علاه البهاء[١٦]، ثم سقاها حتى رَوِيت، وسقى أصحابه حتى رَوَوا، وشرب آخرهم ﷺ، ثم أراضوا[١٧]، ثم حلب فيها ثانيًا بعد بدء حتى ملأ الإناء، ثم غادره عندها، ثم بايعها، وارتحلوا عنها.

---

(١) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/ ١٠١).
(٢) هي عاتكة بنت كعب الخزاعية.
(٣) وادي قُدَيْد: موضع قرب مكة يبعد عن الطريق المعبدة حوالي ثمانية كيلومترات.
(٤) البداية والنهاية (٣/ ١٨٨).
(٥) برزة: كهلة كبيرة السن، لا تحتجب احتجاب الشباب.
(٦) جلدة: قوية صلبة، وقيل: عاقلة.
(٧) تحتبي: أي تجلس وتضم يديها إحداهما إلى الأخرى، على ركبتيها وتلك جلسة الأعراب.
(٨) مرملين: نفد زادهم.
(٩) مسنتين: أي داخلين في سَنَة وهي الجدب والمجاعة والقحط.
(١٠) كسر الخيمة: بفتح الكاف وكسرها، وسكون المهملة: أي جانبها.
(١١) تفاجَّت: فتحت مابين رجليها للحلب.
(١٢) درَّت: أرسلت اللبن.
(١٣) واجترت: من الجرة وهي ما تخرجها البهيمة من كرشها تمضغها.
(١٤) يربض: يرويهم حتى يثقلوا فيربضوا، أي يقعوا على الأرض للنوم والراحة.
(١٥) ثجًا: الثج: السيلان ومعنى ثجًّا: لبنًا كثيرًا سائلاً.
(١٦) علاه البهاء: أي علا الإناء بهاء اللبن.
(١٧) أراضوا: أي رَووا، فنقعوا بالري، يريد شربوا مرة بعد مرة حتى رَوَوا.

فقلما لبثت حتى جاء زوجها أبو معبد يسوق أعنزًا عجافاً[١]، يتساوَكْنَ هُزلاً[٢] ضحى، مخّهن قليل، فلما رأى أبو معبد اللبن عجب، وقال: من أين لك هذا اللبن يا أم معبد، والشاة عازب حيال[٣]، ولا حَلُوبة في البيت؟ قالت: لا والله، إلا أنه مرّ بنا رجل مبارك، من حاله كذا وكذا. قال: صفيه لي يا أم معبد. قالت: رأيت رجلاً ظاهر الوضاءة[٤]، أبْلَج الوجه[٥]، حسن الخلق، لم تَعبْه نُحلة[٦]، ولم تُزْر به صَعْلة[٧]، وسيم[٨]، في عينيه دَعَج[٩]، وفي أشفاره وَطفٌ[١٠]، وفي صوته صَهَلٌ[١١]، وفي عنقه سَطَع[١٢]، وفي لحيته كثاثة، أزجُّ[١٣]، أقرن[١٤]، إن صمت فعليه الوقار، وإن تكلم سما[١٥] وعلاه البهاء، أجمل الناس وأبهاه من بعيد، وأحلاه وأحسنه من قريب، حلو المنطق، فصل لا هذر ولا نزر[١٦]، كأن منطقه خرزات نظم يتحدرن، رَبْع[١٧] لا يأس من طول[١٨]، ولا تقتحمه العين من قصر[١٩]، غصن بين غصنين، فهو أنضر الثلاثة منظرًا، وأحسنهم قدرًا، له رُفقاء يحفون به، إن قال استمعوا لقوله، وإن أمر تبادروا إلى أمره، مَحفُود[٢٠]، محشود[٢١]، لا عابسٌ ولا مُفَنَّد[٢٢].

قال أبو معبد: هو والله صاحب قريش، الذي ذكر لنا من أمره ما ذكر بمكة، ولقد

---

(١) عجافاً: ضد السِّمن، وهو جمع عجفاء وهي المهزولة.
(٢) يتساوكن هُزلاً: يتمايلن من الضعف.
(٣) عازب: بعيدة المرعى لا تأوي إلى البيت إلا في الليل، حيال: لم تحمل.
(٤) ظاهر الوضاءة: ظاهر الجمال والحسن.
(٥) أبلج الوجه: مشرق الوجه مضيئه.
(٦) نُحلة: من النحول والدقة والضمور، أي أنه ليس نحيلاً.
(٧) صَعْلة: صغر الرأس وهي تعني الدقة والنحول في البدن.
(٨) وسيم: الوسيم المشهور بالحسن كأنه صار الحسن له سمة.
(٩) دعج: شدة سواد العين في شدة بياضها.
(١٠) في أشفاره وطف: في الشعر النابت على الجفن طول.
(١١) صَهل: كالبُحة وهو ألا يكون حاد الصوت.
(١٢) سطع: طول العنق.
(١٣) أزج: دقيق شعر الحاجبين مع طولهما.
(١٤) أقرن: متصل مابين الحاجبين من الشعر، أو مقرون الحاجبين.
(١٥) سما: علا برأسه، أو بيده وارتفع.
(١٦) لا هذر ولا نزر: الهذر من الكلام ما لا فائدة فيه، والنزر: القليل.
(١٧) رَبْع: ليس بالقصير ولا بالطويل.
(١٨) لا يأس من طول: وقيل «لا بائن من طول» أي: لا يجاوز الناس طولاً.
(١٩) لا تقتحمه العين من قصر: لا تزدريه، ولاتحتقره.
(٢٠) محفود: مخدوم.
(٢١) محشود: يجتمع الناس حواليه.
(٢٢) لا عابس ولا مفند: ليس عابس الوجه، ولا مفند: ليس منسوبًا إلى الجهل وقلة العقل.

هممت أن أصحبه، ولأفعلن إن وجدت إلى ذلك سبيلاً[١].

سابعًا: سراقة بن مالك يلاحق رسول الله ﷺ:

أعلنت قريش في نوادي مكة أنه من يأت بالنبي ﷺ حيًّا أو ميتًا، فله مائة ناقة. وانتشر هذا الخبر عند قبائل الأعراب الذين في ضواحي مكة، وطمع سُرَاقَة بن مالك بن جُعْشُم في نيل الكسب الذي أعدته قريش لمن يأتي برسول الله ﷺ، فأجهد نفسه لينال ذلك، ولكن الله بقدرته التي لا يغلبها غالب، جعله يرجع مدافعًا عن رسول الله ﷺ بعدما كان جاهدًا عليه.

قال ابن شهاب: وأخبرني عبد الرحمٰن بن مالك المُدْلجي، وهو ابن أخي سراقة بن مالك بن جُعْشُم، أن أباه أخبره، أنه سمع سراقة بن واحد جعشم يقول: جاءنا رُسُلُ كفار قريش يجعلون في رسول الله ﷺ، وأبي بكر، دِيَة كُلِّ واحد منهما مَنْ قتله أو أسره، فبينما أنا جالس في مجلس من مجالس قومي بني مُدْلج، أقبل رجل منهم حتى قام علينا، ونحن جلوس، فقال: يا سراقة إني رأيت آنفًا أَسْوِدَة[٢] بالساحل أُراها محمدًا وأصحابه، قال سراقة: فعرفت أنهم هم، فقلت له: إنهم ليسوا بهم، ولكنك رأيت فلانًا وفلانًا، انطلَقوا بأعيننا، ثم لبثت في المجلس ساعة، ثم قمت فدخلت فأمرت جاريتي أن تَخْرُجَ بفرسي، وهي من وراء أكمة[٣]، فَتَحْبِسَها عليَّ، وأخذت رمحي، فخرجت به من ظهر البيت، فخططت بِزُجِّه[٤] الأرض، وخفضت عاليه حتى أتيت فرسي فركبتها، فرفعتُها تُقَرِّب بي حتى دنوت منهم، فَعَثَرَت بي فرسي فخررتُ عنها، فقمت فأهويت يدي إلى كنانتي، فاستخرجت منها الأزلام[٥]، فاستقسمت بها، أَضُرُّهم أم لا، فخرج الذي أكره، فركبتُ فرسي، وعصيت الأزلام، تُقرِّب بي حتى إذا سمعت قراءة رسول الله ﷺ وهو لا يلتفت، وأبو بكر يكثر الالتفات، ساخت[٦] يدا فرسي في الأرض، حتى بلغتا الركبتين، فخررت عنها، ثم زجرتها، فنهضتُ فلم تكد تُخرج يديها فلما استوت قائمة، إذا لأثر يديها عُثان[٧] ساطع في السماء، مثل الدخان، فاستقسمت بالأزلام فخرج الذي أكره، فناديتهم بالأمان، فوقفوا فركبت فرسي حتى جئتُهم، ووقع في نفسي حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم، أن سَيَظْهَرُ أمرُ رسول الله ﷺ، فقلت له: إن قومك قد جعلوا فيك الدِّيَة، وأخبرتهم أخبار ما يريد الناس بهم، وعرضت عليهم

---

(١) انظر: الهجرة النبوية المباركة (ص ١٠٤ـ ١٠٦) والهوامش منه ببعض تصرف.

(٢) أَسْوِدة: جمع قلة لسواد وهو الشخص يرى من بعيد أسود، الهجرة في القرآن (ص ٣٤٤).

(٣) الأكمة: هي الرابية.

(٤) الزج: الحديدة في أسفل الرمح.

(٥) الأزلام: الأقداح التي كانت في الجاهلية مكتوب عليها الأمر، والنهي: افعل ولا تفعل.

(٦) ساخت يدا فرسي: أي غاصت في الأرض.

(٧) عُثان: أي دخان، وجمعه عواثن على غير قياس، النهاية (٣/ ١٨٣).

الزاد والمتاع، فلم يرزآني[(١)] ولم يسألاني، إلا أن قال: «أَخْفِ عنا»، فسألته أن يكتب لي فيّ كتابَ أمنٍ، فأمر عامر بن فهيرة فكتب في رقعة من أديم[(٢)]، ثم مضى رسول الله ﷺ[(٣)].

وكان مما اشتهر عند الناس، من أمر سراقة، ما ذكره ابن عبد البر، وابن حجر، وغيرهما. قال ابن عبد البر: روي سفيان بن عيينة عن أبي موسى عن الحسن أن رسول الله ﷺ قال لسراقة بن مالك: «كيف بك إذا لبست سواري كسرى؟» قال: فلما أُتِيَ عمر بسواري كسرى، ومِنْطَقَته وتاجه، دعا سراقة بن مالك فألبسه إياها، وكان سراقة رجلاً أَزَبّ[(٤)] كثير شعر الساعدين، وقال له: ارفع يديك، فقال: الله أكبر، الحمد لله الذي سلبهما كسرى بن هرمز، الذي كان يقول: أنا رب الناس، وألبسهما سراقة بن مالك بن جُعْشُم أعرابي من بني مُدْلِج، ورفع بها عمر صوته[(٥)]، ثم أركب سراقة، وطيف به المدينة، والناس حوله، وهو يرفع عقيرته مرددًا قول الفاروق: الله أكبر، الحمد لله الذي سلبهما كسرى بن هرمز، وألبسهما سراقة بن جعشم أعرابيًا من بني مُدلِج[(٦)].

ثامنًا: سبحان مقلب القلوب:

كان سراقة في بداية أمره يريد القبض على رسول الله ﷺ، ويسلمه لزعماء مكة، لينال مائة ناقة، وإذا بالأمور تنقلب رأسًا على عقب، ويصبح يرد الطلب عن رسول الله ﷺ، فجعل لا يلقى أحدًا من الطلب إلا رده، قائلاً: كفيتم هذا الوجه، فلما اطمأنَّ إلى أن النبي ﷺ وصل إلى المدينة المنورة، جعل سراقة يقص ما كان من قصته، وقصة فرسه، واشتهر هذا عنه، وتناقلته الألسنة حتى امتلأت به نوادي مكة فخاف رؤساء قريش أن يكون ذلك سببًا لإسلام بعض أهل مكة، وكان سراقة أمير بني مُدْلِج، ورئيسهم فكتب أبو جهل إليهم:

بني مدلج إني أخاف سفيهكم ... سراقة مستغوٍ لنصر محمد
عليكم به ألا يفرّق جمعكم ... فيصبح شتى بعد عز وسؤدد

فقال سراقة يرد على أبي جهل:

أبا حكم ـ والله ـ لو كنت شاهدًا ... لأمر جوادي إذ تسوخ قوائمه
علمت ولم تَشْكُكْ بأن محمدًا ... رسول وبرهان فمن ذا يقاومه

---

(١) فلم يرزآني: أي لم يأخذا مني شيئًا.
(٢) أديم: قطعة من جلد.
(٣) البخاري: كتاب مناقب الأنصار، باب: هجرة النبي ﷺ (رقم ٣٩٠٦).
(٤) التزبب في الإنسان: كثرة الشعر وطوله.
(٥) انظر: الروض الأنف (٤/٢١٨)، الهجرة في القرآن (ص ٣٤٦).
(٦) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (١/ ٤٩٥).

عليك فكُفَّ القوم عنه فإنني أرى أمره يومًا ستبدو معالمه
بأمر تود الناس فيه بأسرهم بأن جميع الناس طُرًّا مسالمه[١]

تاسعاً: استقبال الأنصار لرسول الله ﷺ:

لما سمع «المسلمون بالمدينة مَخْرجَ رسول الله ﷺ من مكة، كانوا يغدون كل غداة إلى الحَرَّة، فينتظرونه حتى يردَّهم حر الظهيرة، فانقلبوا يومًا بعد ما أطالوا انتظارهم، فلما أووا إلى بيوتهم، أوفى رجل من يهودَ على أُطُم[٢] من آطامهم، لأمر ينظر إليه، فَبَصُرَ برسول الله ﷺ وأصحابه مبيضين[٣]، يزول بهم السراب[٤]، فلم يملك اليهودي أن قال بأعلى صوته: يا معاشر العرب، هذا جَدُّكم[٥] الذي تنتظرون، فثار المسلمون إلى السلاح، فتلقَّوا رسول الله ﷺ بظهر الحَرّة فعدل بهم ذات اليمين، حتى نزل بهم في بني عمرو بن عوف، وذلك يوم الاثنين[٦] من شهر ربيع الأول[٧]، فقام أبو بكر للناس، وجلس رسول الله ﷺ صامتًا، فطفق من جاء من الأنصار، ممن لم ير رسول الله ﷺ يُحَيِّي أبا بكر، حتى أصابت الشمس رسول الله ﷺ، فأقبل أبو بكر حتى ظلل عليه بردائه، فعرف الناس رسول الله ﷺ عند ذلك، فلبث رسول الله ﷺ في بني عمرو بن عوف بضعَ عشرة ليلة[٨]، وأُسس المسجد الذي أُسس على التقوى، وصلى فيه رسول الله ﷺ، ثم ركب راحلته»[٩]..

وبعد أن أقام رسول الله ﷺ المدة التي مكثها بقباء، وأراد أن يدخل المدينة «بعث إلى الأنصار، فجاءوا إلى نبي الله ﷺ وأبي بكر فسلموا عليهما، وقالوا: اركبا آمنين مطاعَين فركب نبي الله ﷺ وأبو بكر وحفوا دونهما بالسلاح»[١٠].

وعند وصوله ﷺ إلى المدينة، قيل في المدينة: «جاء نبي الله، جاء نبي الله ﷺ، فأشرفوا ينظرون ويقولون: جاء نبي الله، جاء نبي الله»[١١].

فكان يوم فرح وابتهاج، لم تر المدينة يومًا مثله، ولبس الناس أحسن ملابسهم كأنهم في

---

(١) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (١/ ٤٩٤).
(٢) أطم: كالحصن.
(٣) مبيضين: عليهم ثياب بيض.
(٤) يزول السراب: أي يزول السراب عن النظر بسبب عروضهم له.
(٥) جدكم: حظكم وصاحب دولتكم، الذي تتوقعونه.
(٦) قال الحافظ ابن حجر: هذا هو المعتمد، وشذ من قال يوم الجمعة، الفتح (٧/ ٥٤٤).
(٧) انظر: الهجرة في القرآن الكريم (ص ٣٥١).
(٨) المصدر نفسه (ص ٣٥٢).
(٩) صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي (٥/ ٧٧، ٧٨ ورقمه ٣٩٠٦).
(١٠) المصدر نفسه (رقم ٣٩١١).
(١١) المصدر نفسه (رقم ٣٩١١).

يوم عيد، ولقد كان حقًّا يوم عيد، لأنه اليوم الذي انتقل فيه الإسلام من ذلك الحيز الضيق في مكة، إلى رحابة الانطلاق، والانتشار بهذه البقعة المباركة المدينة، ومنها إلى سائر بقاع الأرض. لقد أحس أهل المدينة بالفضل الذي حباهم الله به، وبالشرف الذي اختصهم به أيضًا، فقد صارت بلدتهم موطنًا لإيواء رسول الله ﷺ، وصحابته المهاجرين، ثم لنصرة الإسلام، كما أصبحت موطنًا للنظام الإسلامي العام والتفصيلي بكل مقوماته، ولذلك خرج أهل المدينة يهللون في فرح وابتهاج، ويقولون: يا رسول الله يا محمد يا رسول الله(١).

روى الإمام مسلم بسنده قال: «عندما دخل رسول الله ﷺ المدينة، صعد الرجال والنساء فوق البيوت، وتفرق الغلمان والخدم في الطرق ينادون: «يا محمدُ، يا رسولَ الله، يا محمد، يا رسول الله!!»(٢).

وبعد هذا الاستقبال الجماهيري العظيم، الذي لم يرد مثله في تاريخ الإنسانية، سار رسول الله ﷺ، حتى نزل في دار أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه ، فعن أنس رضي الله عنه عنه في حديث الهجرة الطويل: فأقبل يسير حتى نزل جانب دار أبي أيوب فإنه ليُحَدِّث أهله(٣) إذ سمع به عبد الله بن سَلاَم وهو في نخل لأهله يَخْتَرِف(٤) لهم، فَعَجِل أن يضع الذي يَخْتَرِف لهم فيها، فجاء وهي معه فسمع من نبي الله ﷺ، ثم رجع إلى أهله، فقال نبيُّ الله ﷺ: «أي بيوت أهلنا(٥) أقربُ»، فقال أبو أيوب: أنا يا نبي الله، هذه داري، وهذا بابي، قال: «فانطلق فهيىء لنا مقيلاً(٦)...»(٧)، ثم نزل رسول الله ﷺ على أبي أيوب حتى بنى مسجده ومساكنه.

وبهذا قد تمت هجرته ﷺ، وهجرة أصحابه رضي الله عنهم ؛ ولم تنته الهجرة بأهدافها وغاياتها، بل بدأت بعد وصول رسول الله ﷺ سالمًا إلى المدينة، وبدأت معها رحلة المتاعب، والمصاعب والتحديات، فتغلب عليها رسول الله ﷺ، للوصول للمستقبل الباهر للأمة، والدولة الإسلامية، التي استطاعت أن تصنع حضارة إنسانية رائعة، على أسس من الإيمان والتقوى، والإحسان والعدل، بعد أن تغلبت على أقوى دولتين كانتا تحكمان في العالم، وهما: دولة الفرس، ودولة الروم(٨).

---

(١) انظر: الهجرة في القرآن (ص ٣٥٣).

(٢) مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب حديث الهجرة (رقم ٧٥ـ ٢٠٠٩).

(٣) الضمير هنا للنبي ﷺ، فتح الباري (٧/ ٢٥١).

(٤) يخترف: أي يجتبي من ثمارها. انظر: النهاية (٢/ ٢٤).

(٥) انظر: الهجرة في القرآن الكريم (ص ٣٥٤).

(٦) مقيلاً: أي مكانًا تقع فيه القيلولة.

(٧) البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي إلى المدينة (٥/ ٧٩ ورقمه ٣٩١١).

(٨) انظر: الهجرة في القرآن الكريم (ص ٣٥٥).

عاشرًا: فوائد ودروس وعبر:

١ ـ **الصراع بين الحق والباطل**: صراع قديم وممتد، وهو سنّة إلٰهية نافذة، قال ﷻ: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: الآية ٤٠].

ولكن هذا الصراع معلوم العاقبة: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: الآية ٢١].

٢ ـ **مكر خصوم الدعوة بالداعية**: أمر مستمر متكرر، سواء عن طريق الحبس أو القتل، أو النفي والإخراج من الأرض، وعلى الداعية أن يلجأ إلى ربه وأن يثق به، ويتوكل عليه، ويعلم أن المكر السيء لا يحيق إلا بأهله[(١)]، كما قالﷻ: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ۖ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: الآية ٣٠].

ومن مكر أهل الباطل وخصوم الدعوة، استخدام سلاح المال لإغراء النفوس الضعيفة، للقضاء على الدعوة والدعاة، ولذلك رصدوا مائة ناقة لمن يأتي بأحد المهاجرين حيًّا أو ميتًا، فتحرك الطامعون ومنهم سراقة، الذي عاد بعد هذه المغامرة الخاسرة ماديًّا بأوفر ربح وأطيب رزق، وهو رزق الإيمان، وأخذ يعمِّي الطريق على الطامعين الآخرين، الذين اجتهدوا في الطلب، وهكذا يرد الله عن أوليائه والدعاة[(٢)]، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: الآية ٣٦].

٣ ـ إن من تأمل حادثة الهجرة ورأى دقة التخطيط فيها، ودقة الأخذ بالأسباب من ابتدائها إلى انتهائها، ومن مقدماتها إلى ما جرى بعدها؛ يدرك أن التخطيط المسدد بالوحي في حياة رسول الله ﷺ، كان قائمًا، وأن التخطيط جزء من السنّة النبوية، وهو جزء من التكليف الإلهي في كل ما طولب به المسلم، وأن الذين يميلون إلى العفوية، بحجة أن التخطيط وإحكام الأمور ليسا من السنّة، أمثال هؤلاء مخطئون، ويجنون على أنفسهم وعلى المسلمين[(٣)].

فعندما حان وقت الهجرة للنبي ﷺ، وشرع النبي ﷺ في التنفيذ نلاحظ الآتي:

* وجود التنظيم الدقيق للهجرة حتى نجحت، رغم ما كان يكتنفها من صعاب وعقبات؛ وذلك أن كل أمر من أمور الهجرة كان مدروسًا دراسة وافية؛ فمثلاً:

---

(١) انظر: الهجرة النبوية المباركة (ص ١٩٩).

(٢) انظر: الهجرة النبوية المباركة (ص ٢٠٠).

(٣) انظر: الأساس في السنّة، سعيد حوى (١/ ٣٥٧).

أ - جاء ﷺ إلى بيت أبي بكر في وقت شدة الحر - الوقت الذي لا يخرج فيه أحد، بل من عادته لم يكن يأتي فيه، لماذا؟ حتى لا يراه أحد.

ب - إخفاء شخصيته ﷺ أثناء مجيئه للصديق، وجاء إلى بيت الصديق متلثمًا، لأن التلثم يقلل من إمكانية التعرف على معالم الوجه المتلثم[١].

جـ - أمر ﷺ أبا بكر أن يخرج من عنده، ولما تكلم لم يبين إلا الأمر بالهجرة دون تحديد الاتجاه.

د - وكان الخروج ليلاً، ومن باب خلفي في بيت أبي بكر[٢].

هـ - بلغ الاحتياط مداه، باتخاذ طرق غير مألوفة للقوم، والاستعانة بذلك بخبير يعرف مسالك البادية، ومسارب الصحراء، ولو كان ذلك الخبير مشركًا ما دام على خلق ورزانة، وفيه دليل على أن الرسول ﷺ كان لا يحجم عن الاستعانة بالخبرات مهما يكن مصدرها[٣].

* انتقاء شخصيات عاقلة لتقوم بالمعاونة في شؤون الهجرة، ويلاحظ أن هذه الشخصيات كلها تترابط برباط القرابة، أو برباط العمل الواحد، مما يجعل من هؤلاء الأفراد وحدة متعاونة على تحقيق الهدف الكبير.

* وضع كل فرد من أفراد هذه الأسرة في عمله المناسب، الذي يجيد القيام به على أحسن وجه، ليكون أقدر على أدائه والنهوض بتبعاته.

* فكرة نوم علي بن أبي طالب مكان الرسول، فكرة ناجحة، قد ضللت القوم وخدعتهم، وصرفتهم عن الرسول ﷺ، حتى خرج في جنح الليل، تحرسه عناية الله وهم نائمون، ولقد ظلت أبصارهم معلقة بعد اليقظة بمضجع الرسول ﷺ، فما كانوا يشكون في أنه ما يزال نائمًا، مسجى في بردته، في حين أن النائم هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

ونرى احتياجات الرحلة قد دبرت تدبيرًا محكمًا:

أ - علي رضي الله عنه: ينام في فراش رسول الله ﷺ ليخدع القوم، ويُسَلِّمَ الودائع ويلحق بالرسول.

ب - وعبد الله بن أبي بكر: صاحب المخابرات الصادق، وكاشف تحركات العدو.

جـ - وأسماء ذات النطاقين: حاملة التموين من مكة إلى الغار، وسط جنون المشركين بحثًا عن محمد ﷺ ليقتلوه.

---

(١) انظر: في السيرة النبوية قراءة لجوانب الحذر والحماية (ص ١٤١).

(٢) انظر: معين السيرة (ص ١٤٧).

(٣) انظر: الهجرة في القرآن الكريم (ص ٣٦١).

د ـ وعامر بن فهيرة: الراعي البسيط الذي قدم اللحم واللبن إلى صاحبي الغار، وبدد آثار أقدام المسيرة التاريخية بأغنامه، كيلا يتفرسها القوم!! لقد كان هذا الراعي يقوم بدور الإمداد والتموين.

هـ ـ وعبد الله بن أريقط: دليل الهجرة الأمين، وخبير الصحراء البصير، ينتظر في يقظة إشارة البدء من الرسول، ليأخذ الركب طريقه من الغار إلى يثرب.

فهذا تدبير للأمور على نحو رائع دقيق، واحتياط للظروف بأسلوب حكيم، ووضع لكل شخص من أشخاص الهجرة في مكانه المناسب، وسد لجميع الثغرات، وتغطية بديعة لكل مطالب الرحلة، واقتصار على العدد اللازم من الأشخاص من غير زيادة، ولا إسراف.

لقد أخذ الرسول ﷺ بالأسباب المعقولة، أخذًا قويًّا، حسب استطاعته وقدرته.. ومن ثم باتت عناية الله متوقعة(١).

٤ ـ الأخذ بالأسباب أمر ضروري:

إن اتخاذ الأسباب أمر ضروري وواجب، ولكن لايعني ذلك دائمًا حصول النتيجة، ذلك لأن هذا أمر يتعلق بأمر الله، ومشيئته، ومن هنا كان التوكل أمرًا ضروريًّا، وهو من باب استكمال اتخاذ الأسباب.

إن رسول الله ﷺ أعد كل الأسباب، واتخذ كل الوسائل، ولكنه في الوقت نفسه مع الله، يدعوه ويستنصره أن يكلل سعيه بالنجاح، وهنا يستجاب الدعاء، وينصرف القوم بعد أن وقفوا على باب الغار، وتسيخ فرس سراقة في الأرض ويكلل العمل بالنجاح(٢).

٥ ـ الإيمان بالمعجزات الحسية:

وفي هجرة النبي ﷺ وقعت معجزات حسية، وهي دلائل ملموسة على حفظ الله ورعايته لرسول الله ﷺ، ومن ذلك ـ على ما روي ـ نسيج العنكبوت على فم الغار، ومنها ما جرى لرسول الله ﷺ مع أم معبد، وما جرى له مع سراقة، ووعده إياه بأن يلبس سواري كسرى، فعلى الدعاة أن لا يتنصلوا من هذه الخوارق، بل يذكرونها ما دامت ثابتة بالسنة النبوية، على أن ينبهوا الناس على أن هذه الخوارق هي من جملة دلائل نبوته ورسالته عليه السلام (٣).

٦ ـ جواز الاستعانة بالكافر المأمون:

ويجوز للدعاة أن يستعينوا بمن لا يؤمن بدعوتهم، ما داموا يثقون بهم ويأتمنونهم على

---

(١) انظر: أضواء على الهجرة، لتوفيق محمد (ص ٣٩٣ـ ٣٩٧).

(٢) انظر: من معين السيرة (ص ١٤٨).

(٣) انظر: المستفاد من قصص القرآن (١٠٨/٢).

ما يستعينون به معهم، فقد رأينا أن النبي ﷺ وأبا بكر استأجرا مشركًا ليدلهما على طريق الهجرة، ودفعا إليه راحلتيهما وواعداه عند غار ثور، وهذه أمور خطيرة أطلعاه عليها، ولا شك أن النبي ﷺ وأبا بكر وثقا به وأمناه، مما يدل على أن الكافر أو العاصي، أو غير المنتسب إلى الدعاة، قد يوجد عند هؤلاء ما يستدعي وثوق الدعاة بهم، كأن تربطهم رابطة القرابة، أو المعرفة القديمة، أو الجوار، أو عمل معروف، كأن قد قدمه الداعية لهم، أو لأن هؤلاء عندهم نوع جيد من الأخلاق الأساسية، مثل الأمانة، وحب عمل الخير، إلى غير ذلك من الأسباب، والمسألة تقديرية، يترك تقديرها إلى فطنة الداعي، ومعرفته بالشخص[1].

٧ ـ دور المرأة في الهجرة:

وقد لمعت في سماء الهجرة أسماء كثيرة، كان لها فضل كبير، ونصيب وافر من الجهاد: منها عائشة بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنها التي حفظت لنا القصة، ووعتها وبلَّغتها للأمة، وأم سلمة المهاجرة الصبور، وأسماء ذات النطاقين[2]، التي ساهمت في تموين الرسول ﷺ وصاحبه في الغار، بالماء والغذاء، وكيف تحملت الأذى في سبيل الله؟ فقد حدثتنا عن ذلك، فقالت: «لما خرج رسول الله ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه ، أتانا نفر من قريش، فيهم أبو جهل بن هشام، فوقفوا على باب أبي بكر، فخرجت إليهم، فقالوا: أين أبوك يا بنت أبي بكر؟ قالت: قلت: لا أدري والله أين أبي! قالت: فرفع أبو جهل يده ـ وكان فاحشًا خبيثًا ـ فلطم خَدِّي لطمة طرح منها قُرْطي، قالت: ثم انصرفوا...»[3].

فهذا درس من أسماء رضي الله عنها تعلمه لنساء المسلمين، جيلاً بعد جيل؛ كيف تخفي أسرار المسلمين عن الأعداء، وكيف تقف صامدة شامخة أمام قوى البغي والظلم! وأما درسها الثاني البليغ، فعندما دخل عليها جدها أبو قحافة، وقد ذهب بصره، فقال: «والله إني لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه»، قالت: «كلا يا أبت، ضع يدك على هذا المال». قالت: «فوضع يده عليه»، فقال: «لا بأس، إذا كان ترك لكم هذا فقد أحسن وفي هذا بلاغ لكم». قالت: «ولا والله ما ترك لنا شيئًا، ولكني أردت أن أسكّن الشيخ بذلك»[4].

وبهذه الفطنة والحكمة سترت أسماء أباها، وسكّنت قلب جدها الضرير، من غير أن تكذب، فإن أباها قد ترك لهم حقًا هذه الأحجار التي كومتها، لتطمئن لها نفس الشيخ! إلا أنه قد ترك لهم معها إيمانًا بالله لا تزلزله الجبال، ولا تحركه العواصف الهوج، ولا يتأثر بقلة أو كثرة من المال، وَوَرَّثهم يقينًا وثقة به لا حدَّ لها، وغرس فيهم همة تتعلق بمعالي الأمور،

---

(١) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/١٠٨).

(٢) انظر: الهجرة النبوية المباركة (ص ٢٠٦).

(٣) المصدر نفسه (ص ١٢٦).

(٤) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٢/١٠٢) إسناده صحيح.

ولا تلتفت إلى سفسافها، فضرب بهم للبيت المسلم مثالاً عزّ أن يتكرر، وقلّ أن يوجد نظيره.

لقد ضربت أسماء، رضي الله عنها، بهذه المواقف لنساء المسلمين مثلاً، هُنّ في أمس الحاجة إلى الاقتداء به، والنسج على منواله.

وظلت أسماء مع أخواتها في مكة، لا تشكو ضيقًا، ولا تظهر حاجة، حتى بعث النبي ﷺ زيد بن حارثة، وأبا رافع مولاه، وأعطاهما بعيرين وخمسمائة درهم إلى مكة، فقدما عليه بفاطمة وأم كلثوم ابنتيه، وسودة بنت زمعة زوجه، وأسامة بن زيد، وأمه بَرَكة، المكناة بأم أيمن، وخرج معهما عبد الله بن أبي بكر بعيال أبي بكر، فيهم عائشة وأسماء، فقدموا المدينة، فأنزلهم في بيت حارثة بن النعمان(١).

٨ ـ أمانات المشركين عند رسول الله ﷺ:

في إيداع المشركين ودائعهم عند رسول الله ﷺ، مع محاربتهم له، وتصميمهم على قتله، دليل باهر على تناقضهم العجيب، الذي كانوا واقعين فيه، ففي الوقت الذي كانوا يكذبونه، ويزعمون أن ساحر، أو مجنون، أو كذاب، لم يكونوا يجدون فيمن حولهم من هو خير منه أمانة وصدقًا، فكانوا لا يضعون حوائجهم، ولا أموالهم التي يخافون عليها إلا عنده! وهذا يدل على أن كفرانهم لم يكن بسبب الشك لديهم في صدقه، وإنما بسبب تكبرهم واستعلائهم على الحق، الذي جاء به، وخوفًا على زعامتهم وطغيانهم(٢)، وصدق الله العظيم: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: الآية ٣٣].

وفي أمر الرسول ﷺ لعلي ـ رضي الله عنه ـ بتأدية هذه الأمانات لأصحابها في مكة، على الرغم من هذه الظروف الشديدة، التي كان من المفروض أن يكتنفها الاضطراب، بحيث لا يتجه التفكير إلا إلى إنجاح خطة هجرته فقط، على الرغم من ذلك فإن الرسول ﷺ ما كان لينسى أو ينشغل عن رد الأمانات إلى أهلها، حتى ولو كان في أصعب الظروف التي تنسي الإنسان نفسه فضلاً عن غيره(٣).

٩ ـ الراحلة بالثمن:

لم يقبل رسول الله ﷺ أن يركب الراحلة، حتى أخذها بثمنها من أبي بكر رضي الله عنه، واستقر الثمن دينًا بذمته، وهذا درس واضح، بأن حملة الدعوة ما ينبغي أن يكونوا عالة على أحد، في وقت من الأوقات، فهم مصدر العطاء في كل شيء.

إن يدهم إن لم تكن العليا فلن تكون السفلى، وهكذا يصر ـ عليه السلام ـ أن يأخذها

(١) انظر: الهجرة النبوية المباركة (ص ١٢٨).

(٢) انظر: فقه السيرة د. البوطي (ص ١٩٣).

(٣) انظر: الهجرة في القرآن الكريم (ص ٣٦٤).

بالثمن، وسلوكه ذلك هو الترجمة الحقة لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ١٠٩] .

إن الذين يحملون العقيدة والإيمان، ويبشرون بهما، ما ينبغي أن تمتد أيديهم إلى أحد ـ إلا الله ـ لأن هذا يناقض ما يدعون إليه، وقد تعود الناس أن يعوا لغة الحال لأنها أبلغ من لغة المقال، وما تأخر المسلمون، وأصابهم ما أصابهم من الهوان، إلا يوم أصبحت وسائل الدعوة والعاملين بها خاضعة للغة المادة، إذ ينتظر الواحد منهم مرتبه، ويومها تحول العمل إلى عمل مادي، فقد الروح والحيوية والوضاءة، وأصبح للأمر بالمعروف موظفون، وأصبح الخطباء موظفين، وأصبح الأئمة موظفين.

إن الصوت الذي ينبعث من حنجرة وراءها الخوف من الله، والأمل في رضاه، غير الصوت الذي ينبعث ليتلقى دراهم معدودة، فإذا توقفت توقف الصوت، وقديمًا قالوا: ليست النائحة كالثكلى، ولهذا قلَّ التأثير، وبعد الناس عن جادة الصواب(١).

١٠ ـ الداعية يعفُّ عن أموال الناس:

لما عفا النبي ﷺ عن سراقة، عرض عليه سراقة المساعدة، فقال: وهذه كنانتي فخذ منها سهمًا، فإنك ستمر بإبلي وغنمي في موضع كذا وكذا، فخذ منها حاجتك، فقال رسول الله ﷺ: «لا حاجة لي فيها»(٢).

فحين يزهد الدعاة فيها عند الناس، يحبهم الناس، وحين يطمعون في أموال الناس، ينفر الناس منهم، وهذا درس بليغ للدعاة إلى الله تعالى(٣).

١١ ـ الجندية الرفيعة والبكاء من الفرح:

تظهر أثر التربية النبوية في جندية أبي بكر الصديق وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما فأبو بكر رضي الله عنه عندما أراد أن يهاجر إلى المدينة، وقال له رسول الله ﷺ: «لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحبًا» فقد بدأ في الإعداد والتخطيط للهجرة «فابتاع راحلتين واحتبسهما في داره يعلفهما إعدادًا لذلك» وفي رواية البخاري، «وعلف راحلتين كانتا عنده ورق السمر ـ وهو الخبط ـ أربعة أشهر». لقد كان يدرك بثاقب بصره رضي الله عنه، وهو الذي تربى ليكون قائدًا، أن لحظة الهجرة صعبة، قد تأتي فجأة، ولذلك هيأ وسيلة الهجرة، ورتب تموينها، وسخر أسرته لخدمة النبي ﷺ، وعندما جاء رسول الله ﷺ، وأخبره أن الله قد أذن له في الخروج والهجرة، بكى

---

(١) انظر: معين السيرة (ص ١٤٨، ١٤٩).

(٢) المسند (١/ ٣ ورقمه ٣) تحقيق أحمد محمد شاكر، وقال محققو طبعة الرسالة. إسناده صحيح على شرط مسلم.

(٣) انظر: في ظلال الهجرة النبوية (ص ٥٨).

من شدة الفرح. وتقول عائشة رضي الله عنها في هذا الشأن: «فوالله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أن أحدًا يبكي من الفرح، حتى رأيت أبا بكر يبكي يومئذٍ»، إنها قمة الفرح البشرى؛ أن يتحول الفرح إلى بكاء.

فالصديق رضي الله عنه، يعلم أن معنى هذه الصحبة، أنه سيكون وحده برفقة رسول رب العالمين، بضعة عشر يومًا على الأقل، وهو الذي سيقدم حياته لسيده وقائده وحبيبه المصطفى ﷺ، فأي فوز في هذا الوجود؛ يفوق هذا الفوز: أن يتفرد الصديق وحده من دون أهل الأرض، ومن دون الصحب جميعًا برفقة سيد الخلق وصحبته - ﷺ - كل هذه المدة[١]، وتظهر معاني الحب في الله في خوف أبي بكر، وهو في الغار من أن يراهما المشركون، ليكون الصديق مثلاً لما ينبغي أن يكون عليه جندي الدعوة الصادق، مع قائده الأمين، حيث يحدق به الخطر، من خوف وإشفاق على حياته؛ فما كان أبو بكر ساعتئذٍ بالذي يخشى على نفسه الموت، ولو كان كذلك لما رافق رسول الله ﷺ في هذه الهجرة الخطيرة، وهو يعلم أن أقل جزائه القتل إن أمسكه المشركون مع رسول الله ﷺ، ولكنه كان يخشى على حياة الرسول الكريم ﷺ، وعلى مستقبل الإسلام إن وقع الرسول ﷺ في قبضة المشركين[٢]، ويظهر الحس الأمني الرفيع للصديق في هجرته مع النبي ﷺ، في مواقف كثير منها؛ حين أجاب السائل: من هذا الرجل الذي بين يديك؟ فقال: هذا هاد يهديني السبيل، فظن السائل أن الصديق يقصد الطريق، وإنما كان يقصد سبيل الخير، وهذا يدل على حسن استخدام أبي بكر للمعاريض، فرارًا من الحرج أو الكذب[٣]، لأن الهجرة كانت سرًّا. وقد أقره الرسول ﷺ على ذلك[٤]، وفي موقف علي بن أبي طالب مثال للجندي الصادق، المخلص لدعوة الإسلام، حيث فدى قائده بحياته، ففي سلامة القائد سلامة للدعوة، وفي هلاكه خذلانها ووهنها، فما فعله عليٌّ رضي الله عنه، ليلة الهجرة، من بياته على فراش الرسول ﷺ، إذ كان من المحتمل أن تهوي سيوف فتيان قريش على رأس علي رضي الله عنه، ولكن عليًا رضي الله عنه لم يبال بذلك، فحسبه أن يسلم رسول الله ﷺ، نبي الأمة، وقائد الدعوة[٥].

١٢ - فن قيادة الأرواح، وفن التعامل مع النفوس:

يظهر الحب العميق الذي سيطر على قلب أبي بكر لرسول الله ﷺ، في الهجرة، كما يظهر حب سائر الصاحبة أجمعين، في سيرة الحبيب المصطفى ﷺ. وهذا الحب الرباني كان

---

(١) انظر: التربية القيادية (٢/ ١٩١، ١٩٢).

(٢) السيرة النبوية دروس وعبر للسباعي (ص ٧١).

(٣) انظر: الهجرة النبوية المباركة (ص ٢٠٤).

(٤) انظر: الهجرة النبوية لأبي فارس (ص ٢٥٤).

(٥) انظر: السيرة النبوية للسباعي (ص ٦٨).

نابعًا من القلب، وبإخلاص، لم يكن حب نفاق، أو نابعًا من مصلحة دنيوية، أو رغبة في منفعة، أو رهبة لمكروه قد يقع، ومن أسباب هذا الحب لرسول الله ﷺ، صفاته القيادية الرشيدة، فهو يسهر ليناموا، ويتعب ليستريحوا، ويجوع ليشبعوا، كان يفرح لفرحهم، ويحزن لحزنهم، فمن سلك سنن الرسول ﷺ مع صحابته، في حياته الخاصة والعامة، وشارك الناس في أفراحهم وأتراحهم، وكان عمله لوجه الله، أصابه شيء من هذا الحب، إن كان من الزعماء، أو القادة، أو المسؤولين في أمة الإسلام(١).

إن القيادة الصحيحة؛ هي التي تستطيع أن تقود الأرواح قبل كل شيء، وتستطيع أن تتعامل مع النفوس قبل غيرها، وعلى قدر إحسان القيادة، يكون إحسان الجنود، وعلى قدر البذل من القيادة، يكون الحب من الجنود، فقد كان ﷺ رحيمًا وشفيقًا بجنوده، وأتباعه، فهو لم يهاجر إلا بعد أن هاجر معظم أصحابه، ولم يبق إلا المستضعفون والمفتونون، ومن كانت له مهمات خاصة بالهجرة(٢).

١٣ ـ وفي الطريق أسلم بريدة الأسلمي رضي الله عنه في ركب من قومه:

إن المسلم الذي تغلغلت الدعوة في شغاف قلبه، لا يفتر لحظة واحدة عن دعوة الناس إلى دين الله تعالى، مهما كانت الظروف قاسية، والأحوال مضطربة، والأمن مفقودًا، بل ينتهز كل فرصة مناسبة، لتبليغ دعوة الله تعالى، هذا نبي الله تعالى يوسف عليه السلام، حينما زج به في السجن ظلماً، واجتمع بالسجناء في السجن، فلم يندب حظه، ولم تشغله هذه الحياة المظلمة، عن دعوة التوحيد، وتبليغها للناس، ومحاربة الشرك، وعبادة غير الله، والخضوع لأي مخلوق، قال تعالى: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يُوسُف: الآيات ٣٧ ـ ٤٠].

وسورة يوسف عليه السلام مكية، وقد أمر الله تعالى رسوله محمدًا ﷺ أن يقتدي بالأنبياء والمرسلين في دعوته إلى الله، ولذلك نجده ﷺ في هجرته من مكة إلى المدينة، وقد كان مطاردًا من المشركين، قد أهدروا دمه، وأغروا المجرمين منهم بالأموال الوفيرة، ليأتوا برأسه حيًّا أوميتًا، ومع هذا فلم ينس مهمته ورسالته، فقد لقي ﷺ في طريقه رجلاً يقال له بريدة بن الحصيب الأسلمي رضي الله عنه، في ركب من قومه، فدعاهم إلى الإسلام فآمنوا وأسلموا(٣).

---

(١) انظر: السيرة النبوية لأبي فارس (ص ٥٤).

(٢) انظر: الهجرة النبوية المباركة (ص ٢٠٥).

(٣) انظر: الهجرة النبوية لأبي فارس (ص ٥٩)، شرح المواهب (١/ ٤٠٥).

وذكر ابن حجر العسقلاني ـ رحمه الله ـ «أن النبي ﷺ في طريق هجرته إلى المدينة، لقي بُريدة بن الحُصَيْب بن عبد الله بن الحارث الأسلمي، فدعاه إلى الإسلام، وقد غزا مع الرسول ﷺ ست عشرة[1] غزوة، وأصبح بريدة بعد ذلك من الدعاة إلى الإسلام، وفتح الله لقومه «أسلم» على يديه أبواب الهداية، واندفعوا إلى الإسلام، وفازوا بالوسام النبوي الذي نتعلم منه منهجًا فريدًا في فقه النفوس، قال ﷺ: «أسلم سالمها الله، وغفار غفر الله لها، أما إني لم أَقُلْها، ولكن قالها الله عز وجل»[2].

١٤ ـ وفي طريق الهجرة أسلم لصّان على يدي رسول الله ﷺ:

كان في طريقه ﷺ بالقرب من المدينة لصَّان من أسلم، يقال لهما المهانان، فقصدهما، ﷺ، وعرض عليهما الإسلام فأسلما، ثم سألهما عن أسمائهما فقالا: نحن المهانان، فقال: «بل أنتما المكرمان»، وأمرهما أن يقدما عليه المدينة[3]، وفي هذا الخبر يظهر اهتمامه ﷺ بالدعوة إلى الله، حيث اغتنم فرصة في طريقه، ودعا اللصين إلى الإسلام، فأسلما، وفي إسلام هذين اللصين مع ما ألفاه من حياة البطش، والسلب والنهب، دليل على سرعة إقبال النفوس على اتباع الحق، إذا وجد من يمثله بصدق وإخلاص، وتجردت نفس السامع من الهوى المنحرف، وفي إهمام الرسول ﷺ بتغيير سمَي هذين اللصين من المهانين، إلى المكرَمين دليل على اهتمامه ﷺ بسمعة المسلمين، ومراعاته مشاعرهم إكرامًا لهم، ورفعًا لمعنوياتهم.

وإن في رفع معنوية الإنسان تقوية لشخصيته، ودفعًا له إلى الأمام ليبذل كل طاقته في سبيل الخير والفلاح[4].

١٥ ـ الزبير وطلحة رضي الله عنهما، ولقاؤهما برسول الله ﷺ في طريق الهجرة:

ومما وقع في الطريق إلى المدينة، إنه ﷺ، لقي الزبير بن العوام، في ركب من المسلمين كانوا تِجارًا قافلين من الشام، فكسى الزبيرُ رسول الله ﷺ وأبا بكر ثيابًا بيضاء، رواه البخاري[5]، وكذا روى أصحاب السِّيَر أن طلحة بن عبيد الله لقيهما أيضًا، وهو عائد من الشام وكساهما بعض الثياب[6].

---

(١) انظر: الإصالة (١/١٤٦).

(٢) صحيح الجامع الصغير (١/٣٢٨، رقم ٩٨٦)، مسلم، واللفظ له، ورقمه [١٨٥ـ ٢٥١٦)].

(٣) الفتح الرباني للساعاتي (٢٠/٢٨٩) ورقمه في المسند ـ ط/ الرسالة ـ (١٦٦٩١)، وأورده الهيثمي في المجمع (٦/٥٨، ٥٩) وقال: وابن سعد اسمه عبد الله ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات.

(٤) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٣/١٧٨).

(٥) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (١/ ٤٩٥)، وهو في البخاري (ورقمه ٣٩٠٦).

(٦) السيرة النبوية لأبي شهبة (١/ ٤٩٥)، صحيح السيرة النبوية (ص ١٨١).

١٦ ـ أهمية العقيدة والدين في إزالة العداوة والضغائن:

إن العقيدة الصحيحة السليمة، والدين الإسلامي العظيم، لهما أهمية كبرى في إزالة العداوات والضغائن، وفي التأليف بين القلوب والأرواح، وهو دور لا يمكن لغير العقيدة الصحيحة أن تقوم به، وها قد رأينا كيف جمعت العقيدة الإسلامية بين الأوس والخزرج، وأزالت آثار معارك استمرت عقودًا من الزمن، وأغلقت ملف ثارات كثيرة، في مدة قصيرة، بمجرد التمسك بها والمبايعة عليها، وقد رأينا ما فعلته العقيدة في نفوس الأنصار، فاستقبلوا المهاجرين بصدور مفتوحة، وتآخوا معهم في مثالية نادرة، لا تزال مثار الدهشة، ومضرب المثل، ولا توجد في الدنيا فكرة أو شعار آخر، فعل مثلما فعلت عقيدة الإسلام الصافية في النفوس.

ومن هنا ندرك السر في سعي الأعداء الدائب إلى إضعاف هذه العقيدة، وتقليل تأثيرها في نفوس المسلمين، واندفاعهم المستمر نحو تزكية النعرات العصبية والوطنية والقومية وغيرها، وتقديمها كبديل للعقيدة الصحيحة[١].

١٧ ـ فرحة المهاجرين والأنصار بوصول النبي ﷺ:

كان فرحة المؤمنين من سكان يثرب من أنصار ومهاجرين، بقدوم رسول الله ﷺ، ووصوله إليهم سالمًا، فرحة أخرجت النساء من بيوتهن والولائد، وحملت الرجال على ترك أعمالهم، وكان موقف يهود المدينة موقف المشارك لسكانها في الفرحة ظاهرًا، والمتألم من منافسة الزعامة الجديدة باطنًا، أما فرحة المؤمنين بلقاء رسولهم، فلا عجب فيها، وهو الذي أنقذهم من الظلمات إلى النور، بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد، وأما موقف اليهود فلا غرابة فيه، وهم الذين عرفوا بالملق والنفاق للمجتمع الذي فقدوا السيطرة عليه، وبالغيظ والحقد الأسود ممن يسلبهم زعامتهم على الشعوب، ويحول بينهم وبين سلب أموالهم باسم القروض، وسفك دمائها باسم النصح والمشورة، وما زال اليهود يحقدون على كل من يخلص الشعوب من سيطرتهم، وينتهون من الحقد إلى الدس والمؤامرات، ثم إلى الاغتيال إن استطاعوا، ذلك دينهم، وتلك جبلتهم[٢].

ويستفاد من استقبال المهاجرين والأنصار لرسول الله ﷺ، مشروعية استقبال الأمراء والعلماء، عند مقدمهم بالحفاوة والإكرام، فقد حدث ذلك لرسول الله ﷺ، وكان هذا الإكرام وهذه الحفاوة نابعين من حب للرسول، بخلاف ما نراه من استقبال الزعماء والحكام في عالمنا المعاصر، ويستفاد كذلك التنافس في الخير، وإكرام ذوي العلم والشرف، فقد كانت كل قبيلة

---

(١) انظر: الهجرة النبوية المباركة (ص ٤٠٥).

(٢) انظر: السيرة النبوية للسباعي (ص ٤٣)، الهجرة في القرآن الكريم (ص ٣٦٧).

تحرص أن تستضيف رسول الله ﷺ، وتعرض أن يكون رجالها حُراسًا له، ويؤخذ من هذا إكرام العلماء والصالحين، واحترامهم وخدمتهم[١].

١٨ ـ وضوح سنة التدرج:

حيث نلاحظ أن رسول الله ﷺ عندما تقابل مع طلائع الأنصار الأولى، لم يفعل سوى ترغيبهم في الإسلام، وتلاوة القرآن عليهم، فلما جاءوا في العام التالي بايعهم بيعة النساء، على العبادات والأخلاق والفضائل، فلما جاءوا في العام التالي كانت بيعة العقبة الثانية على الجهاد والنصر والإيواء[٢].

وجدير بالملاحظة أن بيعة الحرب لم تتم إلا بعد عامين كاملين، أي بعد تأهيل وإعداد، استمر عامين كاملين، وهكذا تم الأمر على تدرج، ينسجم مع المنهج التربوي الذي نهجت عليه الدعوة من أول يوم[٣].

إنه المنهج الذي هدى الله نبيه إلى التزامه، ففي البيعة الأولى بايعه هؤلاء الأنصار الجدد على الإسلام عقيدة ومنهاجًا وتربية، وفي البيعة الثانية بايعه الأنصار على حماية الدعوة، واحتضان المجتمع الإسلامي الذي نضجت ثماره، واشتدت قواعده قوة وصلابة.

إن هاتين البيعتين أمران متكاملان، ضمن المنهج التربوي للدعوة الإسلامية، وإن الأمر الأول هو المضمون، والأمر الثاني وهو بيعة الحرب، هو السياج الذي يحمي ذلك الضمون، نعم كانت بيعة الحرب بعد عامين من إعلان القوم الإسلام وليس فور إعلانهم.

بعد عامين إذ تم إعدادهم، حتى غدوا موضع ثقة، وأهلاً لهذه البيعة، ويلاحظ أن بيعة الحرب لم يسبق أن تمّت قبل اليوم مع أي مسلم، إنما حصلت عندما وجدت الدعوة في هؤلاء الأنصار، وفي الأرض التي يقيمون فيها، المعقل الملائم الذي ينطلق منه المحاربون، لأن مكة لوضعها عندئذٍ لم تكن تصلح للحرب[٤].

وقد اقتضت رحمة الله بعباده «أن لا يحملهم واجب القتال، إلى أن توجد لهم دار إسلام، تكون لهم بمثابة معقل يأوون إليه، ويلوذون به، وقد كانت المدينة المنورة أول دار إسلام»[٥].

لقد كانت البيعة الأولى قائمة على الإيمان بالله ورسوله ﷺ، والبيعة الثانية على الهجرة والجهاد، وبهذه العناصر الثلاثة: الإيمان بالله، والهجرة، والجهاد، يتحقق وجود الإسلام في

---

(١) انظر: السيرة النبوية لأبي فارس (ص ٣٥٨، ٣٥٩).
(٢) انظر: الهجرة النبوية المباركة (ص ٢٠٢).
(٣) انظر: بناء المجتمع الإسلامي في عصر النبوة، محمد توفيق (ص ١١٩).
(٤) المصدر نفسه (ص ١٢٢، ١٢٣).
(٥) انظر: فقه السيرة للبوطي (ص ١٧٢).

واقع جماعي ممكن، والهجرة لم تكن لتتم لولا وجود الفئة المستعدة للإيواء، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَٰهَدُوا بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَوا وَّنَصَرُوٓا أُولَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الأنفال: الآية ٧٢] وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَٰهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰٓئِكَ مِنكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: الآية ٧٥] .

وقد كانت بيعة الحرب هي التمهيد الأخير لهجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة، وبذلك وجد الإسلام موطنه الذي ينطلق منه دعاة الحق بالحكمة والموعظة، وتنطلق منه جحافل الحق المجاهدة أول مرة، وقامت الدولة الإسلامية المحكمة لشرع الله(١).

١٩ ـ الهجرة تضحية عظيمة في سبيل الله:

كانت هجرة النبي ﷺ وأصحابه، عن البلد الأمين، تضحية عظيمة، عبرّ عنها النبي ﷺ بقوله: «والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أُخرجت منك ما خرجت»(٢).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة قدمها وهي أوبأ أرض الله من الحمى، وكان واديها يجري نجلاً ـ يعني ماءً آجنًا ـ فأصاب أصحابه منها بلاء وسقم، وصرف الله ذلك عن نبيه. قالت: فكان أبو بكر، وعامر بن فهيرة، وبلال في بيت واحد، فأصابتهم الحمى، فاستأذنت رسول الله ﷺ في عيادتهم فأذن، فدخلت إليهم أعودهم، وذلك قبل أن يضرب علينا الحجاب، وبهم ما لا يعلمه إلا الله، من شدة الوعك(٣)، فدنوت من أبي بكر فقلت: يا أبت كيف تجدُك؟ فقال:

كل امرىء مُصبَّح في أهله والموتُ أدنى من شِراك نعله

قالت: فقلت: والله ما يدري أبي ما يقول. ثم دنوت من عامر بن فهيرة فقلت: كيف تجدُك يا عامر؟ فقال:

لقد وجدت الموت قبل ذَوقه إن الجبان حتفُه من فَوقه
كل امرئٍ مجاهد بطَوقه (٤) كالثور يحمي جلده بِرَوْقه (٥)

---

(١) انظر: الغرباء الأولون (ص ١٩٨، ١٩٩).

(٢) الترمذي، كتاب المناقب، باب فضل مكة (٥/ ٧٢٢ رقم ٣٩٢٥)، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب صحيح» وقال الألباني: «صحيح».

(٣) الوعك: الحُمى.

(٤) بطوقه: بطاقته.

(٥) بروقه: بقرنه.

قالت: فقلت: والله ما يدري عامر ما يقول. قالت: وكان بلال إذا أقلع عنه الحمى اضطجع بفناء البيت، ثم يرفع عقيرته[١] ويقول:

ألا ليت شعري هل أبيتَنَّ ليلة … بواد وحولي إذْخر[٢] وَجَليل
وهل أَرِدَنْ يومًا مياه مَجَنَّة … وهل يَبْدُوَنْ لي شامَةٌ وطَفيل[٣]

قالت: فأخبرت رسول الله ﷺ بذلك فقال: «اللهمَّ حبِّب إلينا المدينة، كما حَبَّبْتَ إلينا مكة، أو أشدَّ، وانقل حُمَّاها إلى الجُحْفَة، اللهم بارك لنا في مُدِّنا وصاعنا»[٤].

وقد استجاب الله دعاء نبيه ﷺ، وعوفي المسلمون بعدها من هذه الحمى، وغدت المدينة موطنًا ممتازًا لكل الوافدين والمهاجرين إليها، من المسلمين على تنوع بيئاتهم ومواطنهم[٥].

٢٠ ـ مكافأة النبي ﷺ لأم معبد:

وقد روي أنها كثرت غنمها، ونمت حتى جلبت منها جَلَبًا إلى المدينة، فمر أبو بكر، فرآه ابنها فعرفه، فقال: يا أُمَّه هذا الرجل الذي كان مع المبارك، فقامت إليه فقالت: يا عبد الله من الرجل الذي كان معك؟ قال: أو ماتدرين من هو؟ قالت: لا، قال: هو نبي الله، فأدخلها عليه، فأطعمها رسول الله ﷺ وأعطاها ـ وفي رواية: فانطلقت معي، وأهدت لرسول الله ﷺ شيئًا من أقط ومتاع الأعراب، فكساها وأعطاها، قال: ولا أعلمه إلا قال: وأسلمت، وذكر صاحب (الوفاء) أنها هاجرت هي وزوجها، وأسلم أخوها خنيس، واستشهد يوم الفتح[٦].

٢١ ـ أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه ومواقف خالدة:

قال أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه: ولما نزل عليّ رسول الله ﷺ في بيتي نزل في السُّفْل، وأنا وأم أيوب في العُلْو، فقلت له: يا نبي الله ـ بأبي أنت وأمي ـ إني لأكره وأُعْظِم أن أكون فوقك، وتكون تحتي، فاظْهَر أنت فكن في العلو، وننزل نحن فنكون في السفل. فقال: «يا أبا أيوب: إنّ أرفق بنا وبمن يغشانا أن نكون في سُفْل البيت»، قال: فلقد انكسر حُبٌّ[٧] لنا فيه ماء، فقمت أنا وأم أيوب بقطيفة لنا، مالنا لحاف غيرها، ننشف بها الماء تخوفًا أن يقطر على

---

(١) عقيرته: صوته، قال الأصمعي: إن رجلاً عُقرت رجله فرفعها على الأخرى، وجعل يصيح، فصار كل من رفع صوته، يقال له: رفع عقيرته وإن لم يرفع رجله.

(٢) الإذخر: نبات طيب الرائحة.

(٣) شَامة وطَفيل: جيلان مشرفان على مجنة على بريد مكة.

(٤) البخاري، كتاب الدعوات، باب الدعاء برفع الوباء والوجع (رقم ٦٣٧٢) وفي مواضع أخرى، منها: رقم (١٨٨٩).

(٥) انظر: التربية القيادية (٢/ ٣١٠).

(٦) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (١/ ٤٨٩، ٤٩٠).

(٧) الحُبُّ: بضم الحاء المهملة، وتشديد الباء الموحدة التحتية: الجرَّةُ الضخمة، (لسان العرب ـ مادة حبب).

رسول الله ﷺ منه شيء يؤذيه(١).

٢٢ ـ هجرة علي رضي الله عنه وأمره بالمعروف، ونهيه عن المنكر في المجتمع الجديد:

بعد أن أدى عن رسول الله ﷺ الأمانات التي كانت عنده للناس، لحق برسول الله ﷺ، وأدركه بقباء بعد وصوله بليلتين أو ثلاث، فكانت إقامته بقباء ليلتين، ثم خرج مع النبي ﷺ، إلى المدينة يوم الجمعة(٢)، وقد لاحظ سيدنا علي مدة إقامته بقباء امرأة مسلمة لازوج لها، ورأى إنسانًا يأتيها من جوف الليل، فيضرب عليها بابها، فتخرج إليه، فيعطيها شيئًا معه، فتأخذه، قال: «فاستربت بشأنه، فقلت لها: يا أمة الله، من هذا الذي يضرب عليك بابك كل ليلة فتخرجين إليه، فيعطيك شيئًا لا أدري ماهو؟ وأنت امرأة مسلمة، لازوج لك؟ قالت: هذا سهل بن حنيف بن وهب، قد عرف أني امرأة لا أحد لي، فإذا أمسى عدا على أوثان قومه فكسرها، ثم جاءني بها، فقال: احتطبي بهذا، فكان علي رضي الله عنه يأثر ذلك من أمر سهل بن حنيف حتى هلك عنده بالعراق»(٣).

٢٣ ـ الهجرة النبوية نقطة تحول في تاريخ الحياة:

«كانت الهجرة النبوية من مكة المشرفة إلى المدينة المنورة؛ أعظم حدث حوّل مجرى التاريخ، وغير مسيرة الحياة ومناهجها التي كانت تحيا بها، وتعيش محكومة بها في صورة قوانين ونظم وأعراف، وعادات وأخلاق وسلوك للأفراد والجماعات، وعقائد وتعبدات، وعلم ومعرفة، وجهالة وسفه، وضلال وهدى، وعدل وظلم»(٤).

٢٤ ـ الهجرة من سنن الرسل الكرام:

إن الهجرة في سبيل الله سنة قديمة، ولم تكن هجرة نبينا محمد ﷺ بدعًا في حياة الرسل لنصرة عقائدهم، فلئن كان قد هاجر من وطنه ومسقط رأسه، من أجل الدعوة حفاظًا عليها، وإيجاد بيئة خصبة تتقبلها، وتستجيب لها، وتذود عنها، فقد هاجر عدد من إخوانه من الأنبياء قبله من أوطانهم؛ للأسباب نفسها التي دعت نبينا للهجرة.

وذلك أن بقاء الدعوة في أرض قاحلة، لا يخدمها، بل يعوق مسارها ويشل حركتها، وقد يعرضها للانكماش داخل أضيق الدوائر، وقد قص علينا القرآن الكريم نماذج من هجرات الرسل وأتباعهم من الأمم الماضية لتبدو لنا في وضوح سنة من سنن الله في شأن الدعوات، يأخذ بها كل مؤمن من بعدهم، إذا حيل بينه وبين إيمانه وعزته، واستخف بكيانه ووجوده،

---

(١) انظر: السيرة النبوية الصحيحة للعمري (١/ ٢٢٠).

(٢) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (١/ ٤٩٧).

(٣) انظر: محمد رسول الله، محمد الصادق عرجون (٢/ ٤٢١) ويأثر ذلك: أي يُحَدِّث به.

(٤) المصدر نفسه (٢/ ٤٢٣).

واعتدى على مروءته وكرامته(١).

هذه بعض الفوائد والعبر والدروس، وأترك للقارىء الكريم أن يستخرج غيرها، ويستنبط سواها من الدروس والعبر، والفوائد الكثيرة النافعة من هذا الحدث العظيم.

المبحث الثاني

الثناء على المهاجرين بأوصاف حميدة، والوعد لمن هاجر منهم، والوعيد لمن تخلف

تعتبر الهجرة النبوية المباركة، من مكة إلى المدينة، أهم حدث في تاريخ الدعوة الإسلامية، إذ كانت نقطة تحول في تاريخ المسلمين، كان المسلمون قبل الهجرة أمة دعوة، يبلغون دعوة الله للناس، دون أن يكون لهم كيان سياسي، يحمي الدعاة، أو يدفع عنهم الأذى من أعدائهم.

وبعد الهجرة تكونت دولة الدعوة، هذه الدولة التي أخذت على عاتقها نشر الإسلام، في داخل الجزيرة العربية وخارجها، ترسل الدعاة إلى الأمصار، وتتكفل بالدفاع عنهم وحمايتهم من أي اعتداء قد يقع عليهم، ولو أدى ذلك إلى قيام حرب أو حروب(٢).

وبجانب هذا، فإن الهجرة النبوية لها مكانتها في فهم القرآن وعلومه، حيث فرق العلماء بين المكي والمدني، فالمكي: مانزل قبل الهجرة، وإن كان بغير مكة، والمدني: ما نزل بعد الهجرة وإن كان بغير المدينة، وترتب على ذلك فوائد من أهمها:

١ ـ تذوق أساليب القرآن الكريم، والاستفادة منها في أسلوب الدعوة إلى الله.

٢ ـ الوقوف على السيرة النبوية من خلال الآيات القرآنية(٣): ولأهمية الهجرة النبوية نرى أن القرآن الكريم حث المؤمنين على الهجرة في سبيل الله، بأساليب متنوعة، مرة بالثناء على المهاجرين بأوصاف حميدة، وأخرى بالوعد للمهاجرين، وتارة بالوعيد للمتخلفين عن الهجرة(٤).

أولاً: الثناء على المهاجرين بأوصاف حميدة:

فمن أهم الصفات المميزة للمهاجرين(٥):

---

(١) انظر: الهجرة في القرآن الكريم (ص ١٧٥).

(٢) انظر: الهجرة النبوية، د. محمد أبو فارس (ص ١٣).

(٣) انظر: مباحث في علوم القرآن للقطان (ص ٥٩).

(٤) انظر: الهجرة في القرآن الكريم (ص ٨٤).

(٥) انظر: الهجرة في القرآن الكريم (ص ٨٥) هذا المبحث أخذته من هذا الكتاب مع التصرف اليسير.

١ ـ الإخلاص:

قال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: الآية ٨] فقوله تعالى: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ يدل على أنهم لم يخرجوا من ديارهم وأموالهم إلا أن يكونوا مخلصين لله، مبتغين مرضاته ورضوانه[(١)].

٢ ـ الصبر:

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [النحل: ٤١ ـ ٤٢].

٣ ـ الصدق:

قال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: الآية ٨].

قال البغوي في تفسيره: قوله: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ أي في إيمانهم[(٢)].

٤ ـ الجهاد والتضحية:

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [التوبة: الآية ٢٠].

ولعل الملاحظة الجديرة بالتأمل في هذا المجال، أن التضحية ملازمة للجهاد في سبيل الله، إذ لا جهاد دون تضحية[(٣)].

٥ ـ نصرهم لله ورسوله:

قال تعالى عن المهاجرين: ﴿وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: الآية ٨].

٦ ـ التوكل على الله ﷻ:

قال تعالى عن المهاجرين: ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: الآية ٤٢].

٧ ـ الرجاء:

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: الآية ٢١٨].

---

(١) المصدر السابق (ص ٨٦).

(٢) انظر: تفسير البغوي (٣١٨/٤).

(٣) انظر: الهجرة في القرآن الكريم (ص١٠٦).

وإنما قال: ﴿يَرْجُونَ﴾ وقد مدحهم، لأنه لا يعلم أحد في هذه الدنيا أنه صائر إلى الجنة ولو بلغ في طاعة الله كل مبلغ لأمرين؛ أحدهما: لا يدري بما يختم له، والثاني: لئلا يتكل على عمله، فهؤلاء قد غفر الله لهم، ومع ذلك يرجون رحمة الله، وذلك زيادة إيمان منهم(١).

٨ ـ اتباع الرسول ﷺ في العسرة:

قال تعالى: ﴿لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: الآية ١١٧].

وقد نزلت هذه الآية في غزوة تبوك.

قال قتادة: خرجوا إلى الشام عام تبوك، في لهبان الحر، على ما يعلم الله من الجهد، أصابهم فيها جهد شديد، حتى لقد ذكر لنا أن الرجلين كانا يشقان التمرة بينهما، وكان النفر يتداولون التمرة بينهم، يمصها هذا ثم يشرب عليها، ثم يمصها هذا ثم يشرب عليها، فتاب الله عليهم وأقفلهم(٢) من غزوتهم(٣).

٩ ـ حق السبق في الإيمان والعمل يورث حيازة القدوة والسيادة:

قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: الآية ١٠٠].

قال الرازي: والسبق موجب للفضيلة، فإقدامهم على هذه الأفعال يوجب اقتداء غيرهم بهم، وثبت بهذا أن المهاجرين هم رؤساء المسلمين وسادتهم(٤).

١٠ ـ الفوز:

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [التوبة: الآية ٢٠].

قال أبو السعود في تفسيره: قوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ أي المختصون بالفوز العظيم أو بالفوز المطلق، كأن فوز من عداهم ليس بفوز بالنسبة إلى فوزهم(٥).

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٣/ ٥٠)، تفسير أبي السعود (١/ ٢١٨).

(٢) أقفلهم: بمعنى أرجعهم سالمين.

(٣) تفسير ابن كثير (٢/ ٣٩٧).

(٤) انظر: تفسير الرازي (١٥/ ٢٠٨).

(٥) تفسير أبي السعود (٤/ ٥٣).

١١ ـ الإيمان:

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: الآية ٧٤].

ثانياً: الوعد للمهاجرين:

ذكر الله تعالى بعض النعم التي وعدها الله ـ ﷻ للمهاجرين في الدنيا والآخرة ومن هذه النعم:

١ ـ سعة رزق الله لهم في الدنيا:

قال تعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: الآية ١٠٠].

ومن سعة رزق الله لهم في الدنيا تخصيصهم بمال الفيء والغنائم، فالمال لهؤلاء لأنهم أخرجوا من ديارهم فهم أحق الناس به[١].

٢ ـ تكفير سيئاتهم ومغفرة ذنوبهم:

قال تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُواْ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾ [آل عمران: الآية ١٩٥].

وقد ورد عن رسول الله ﷺ أحاديث كثيرة في بيان أن الهجرة من أعظم الوسائل المكفرة للسيئات، وأنها سبب لمغفرة ذنوب أهلها.

٣ ـ ارتفاع منزلتهم وعظمة درجتهم عند ربهم:

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [التوبة: الآية ٢٠].

فالذين نالوا فضل الهجرة والجهاد بنوعيه؛ النفسي والمالي أعلى مرتبة، وأعظم كرامة ممن لم يتصف بهما كائنًا من كان، ويدخل في ذلك أهل السقاية والعمارة[٢].

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٢٩٥)، وتفسير أبي السعود (٨/ ٢٢٨)، وتفسير فتح القدير (٥/ ٢٠٠)، والهجرة في القرآن الكريم (ص ١٣٢).

(٢) تفسير المراغي (١٠/ ٧٨)، تفسير الرازي (١٦/ ١٣، ١٤).

٤ ـ تبشيرهم بالجنة والخلود فيها:

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ٢٠ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ٢١ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التوبة: ٢٠ ـ ٢٢].

هذا بعض ما وعد الله به المهاجرين من الجزاء والثواب بسبب جهادهم المرير.

إن المهاجرين بإيمانهم الراسخ، ويقينهم الخالص لم يمكنوا الجاهلية في مكة من وأد الدعوة، وهي في مستهل حياتها، لقد استمسكوا بما أُوحي إلى نبيهم، ولم تزدهم حماقة قريش إلا اعتصامًا بما اهتدوا إليه وآمنوا به، فلما أسرفت الجاهلية في ذلك؛ صاروا أهلاً لما أسبغه الله عليهم من فضل في الدنيا، وما أعده لهم يوم القيامة من ثواب عظيم(١).

ثالثًا: الوعيد للمتخلفين عن الهجرة:

من العقوبات التي تَوَعَّد الله ـ عز وجل ـ بها المتخلفين عن الهجرة، سوء المصير والعياذ بالله، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْۖ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي ٱلْأَرْضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: الآية ٩٧].

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان قوم من أهل مكة أسلموا، وكانوا يستخفون بالإسلام، فأخرجهم المشركون يوم بدر معهم، فأصيب بعضهم، فقال المسلمون: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ﴾ الآية، قال: فكتب إلى من بقي بمكة من المسلمين بهذه الآية، لا عذر لهم، قال: فخرجوا فلحقهم المشركون فأعطوهم الفتنة، فنزلت فيهم: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: الآية ١٠].

فكتب المسلمون إليهم بذلك، فخرجوا وأيسوا من كل خير، ثم نزلت فيهم: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: الآية ١١٠] (٢).

لقد وصف الله ـ سبحانه ـ المتخلفين عن الهجرة بأنهم ظالمو أنفسهم، والمراد بالظلم في هذه الآية، أن الذين أسلموا في دار الكفر وبقوا هناك، ولم يهاجروا إلى المدينة، ظلموا أنفسهم بتركهم الهجرة(٣).

---

(١) انظر: هجرة الرسول وصحابته في القرآن والسنة للجمل (ص ٣٣٢، ٣٣٣).

(٢) زاد المسير لابن الجوزي (٢/ ٩٧)، تفسير القاسمي (٣/ ٣٩٩).

(٣) انظر: الهجرة في القرآن الكريم (ص ١٦١).

وفي هذه الآية الكريمة، وعيد للمتخلفين عن الهجرة بهذا المصير السيء، وبالتالي التزم الصحابة بأمر الله، وانضموا إلى المجتمع الإسلامي في المدينة تنفيذًا لأمر الله، وخوفًا من عقابه، وكان لهذا الوعيد أثره في نفوس الصحابة ﷺ، فهذا ضَمْرة بن جُنْدُب، لما بلغه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [النِّساء: الآية ٩٧] وهو بمكة قال لبنيه: احملوني فإني لست من المستضعفين، وإني لأهتدي الطريق، وإني لا أبيت الليلة بمكة، فحملوه على سرير، متوجهًا إلى المدينة، وكان شيخًا كبيرًا، فمات بالتنعيم، ولما أدركه الموت، أخذ بصفق بيمينه على شماله، ويقول: اللهم هذه لك، وهذه لرسولك ﷺ، أبايعك على ما بايع عليه رسولك، ولما بلغ خبر موته الصحابة - ﷺ - قالوا: ليته مات بالمدينة، فنزل(١) قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ [النِّساء: ٩٨، ٩٩] .

وهذا الموقف يرينا ماكان عليه جيل الصحابة من سرعة في امتثال الأمر، وتنفيذه في النشاط والشدة، كائنة ما كانت ظروفهم، فلا يلتمسون لأنفسهم المعاذير، ولا يطلبون الرخص(٢) .

فهذا الصحابي تفيد بعض الروايات أنه كان مريضًا(٣)، إلا أنه رأى أنه ما دام له مال يستعين به، ويحمل به إلى المدينة، فقد انتفى عذره، وهذا فقه أملاه الإيمان، وزكّاه الإخلاص واليقين(٤) .

وبعد أن ذكر الله - ﷻ - وعيده للمتخلفين عن الهجرة بسوء مصيرهم، استثنى في ذلك من لا حيلة لهم في البقاء في دار الكفر، والتعرض للفتنة في الدين، والحرمان من الحياة في دار الإسلام من الشيوخ والضعاف والنساء والأطفال، فيعلقهم بالرجاء في عفو الله ومغفرته ورحمته، بسبب عذرهم البين، وعجزهم عن الفرار(٥)، قال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ [النِّساء: ٩٨، ٩٩] .

---

(١) روح المعاني (٥/١٢٨، ١٢٩) للألوسي، أسباب النزول للواحدي (ص ١٨١).

(٢) انظر: الهجرة النبوية المباركة (ص ١٢٤).

(٣) المصدر نفسه (ص ١٢٥).

(٤) المصدر السابق (ص ١٢٦).

(٥) انظر: الهجرة في القرآن الكريم (ص ١٦٧).